

بغداد – المدينة – الدولة

المركز في حكايات ألف ليلة وليلة

دراسة تاريخية واجتماعية وسياسية

د. محمد عبد الرحمن يونس

تُعدّ مدينة بغداد درّة مدن ألف ليلة وليلة، فهي أهم فضاء مكاني مركزي في هذه المدن، إذ يوليها الرواة أهميّة خاصة، ويتوقف السرد في فضاءاتها وأزقتها وقصورها طويلاً، ليعرّج على بنيات المكان والزمان، وتحديدًا إبان الخلافة العباسيّة (132هـ/750م – 232هـ/847م)، وحياة خلفائها، إذ تحتفي الحكايات بالخليفة هرون الرشيد، وزوجته زبيدة، ولديه الأمين والمأمون، وقاضيه أبي يوسف ووزيره جعفر البرمكي، وأخته دنيا البرمكيّة، وندمائهم ومسامريه كأبي نواس، والخليع الدمشقي.

لقد كانت بغداد في التاريخ مركزاً للعالم الإسلامي، وقد احتضنت العلماء والمتكلمين والفقهاء العرب والمسلمين من غير العرب، وانفتحت على حضارات العالم الآخر، وبخاصّة الحضارة الفارسيّة لتحتضن كثيراً من علمائها ومعارفها، وكانت «مدينة زاخرة بكلّ العلوم والفنون (...) وما لبثت أن ازدهرت واحتوت على كلّ أسباب الترف والنعيم. وبعد مدة قصيرة من بنائها، كانت عروس الأقطار الإسلاميّة والأوروبيّة، فلم تكن على وجه الأرض أزهر منها»⁽¹⁾. ولأنّها كانت كلّ ذلك فقد شكّل فضاءها – بعلاقاته وعاداته وثقافته وأخبار نسائه ورجاله – حقلاً مرجعياً مهماً، استمدّت الحكايات منه كثيراً من أبنيتها الفكرية والمعرفية، وحوادثها التاريخيّة. ففي بغداد ألف ليلة وليلة، بالإضافة إلى أخبار الخليفة هرون الرشيد وحاشيته،

(1) أمين، د. أحمد : هرون الرشيد، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال، العدد الثالث، 1370 هـ/ 1951 م، ص 63 – 64.

بونة للبحوث والدراسات العدد : السادس ذو القعدة 1427 هـ/ ديسمبر 2006 م
 أخبار العشق والغزل، والشخص التي تسجل ذكرياتها مع النساء والجواري،
 بجرأة معرفية في قضايا الجسد والجنس، يحسدها عليها أكبر الروائيين
 والقاصين المعاصرين، الذين عُرِفوا بجرأتهم في الحديث عن خبايا الجسد.
 ومن حكايات العشق والجنس التي جسّدتّها الليالي: « حكاية الحمال والبنات.
 «⁽¹⁾، وحكاية « التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب جارية الخليفة هرون
 الرشيد «⁽²⁾، وحكاية « علي بن بكار وشمس النهار»⁽³⁾، وحكاية « علاء
 الدين أبي الشامات «⁽⁴⁾، وحكاية « هرون الرشيد مع محمد بن علي
 الجوهري «⁽⁵⁾، وحكاية « هرون الرشيد مع جعفر والجارية والإمام أبي
 يوسف «⁽⁶⁾، وحكاية « الجواري المختلفة الألوان «⁽⁷⁾، وغيرها من الحكايات
 الأخرى التي تأخذ مساحات جدّ واسعة من فضاء السرد وامتداداته من
 بغداد وإليها، كحكاية « علي الزبيق مع دليلة المحتالة «⁽⁸⁾، وحكاية « حسن
 الصائغ البصري «⁽⁹⁾.

ومن خلال تعاطف أحد الرواة مع مدينة بغداد، ومحبّته لها، فإنّه ينسى
 المدينة التي تكون فضاءً لحكايته في بداية سردها، ثمّ ينتقل إلى بغداد. ففي
 حكاية « الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان «، نجد أنّ
 الراوي ينقل الملك عمر النعمان من دمشق إلى بغداد من دون مسوّغ يذكر،
 وانتقال هذا الملك لا يخدم معمار الحكاية وبناءها، ولا منطق الحكّي، أو
 الوحدات السردية في تشكيلها للأحداث، بل هو انتقال إيديولوجي، يعبر عن

(1) ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، طبعة دون تاريخ، 46/1.

(2) م ن، 1 / 217.

(3) م ن، 2 / 183.

(4) م ن، 2 / 347.

(5) م ن، 2 / 425.

(6) ألف ليلة وليلة، 2 / 445.

(7) م ن، 3 / 71.

(8) م ن، 4 / 111.

(9) م ن، 4 / 245.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس

رغبة الراوي في أن تكون بغداد هي المدينة المركز والأهم من دمشق، وبالتالي يعبر عن وعي الراوي المؤدلج ضد الدولة الأموية، وفي أن تصبح بغداد هي العاصمة المركزية بدلاً من دمشق الأموية التي لا يتعاطف معها هذا الراوي. فبغداد في ألف ليلة وليلة « موطن الخلفاء والسلطان والسياسة قد احتلت هذا المركز [الأهم] في الأذهان، وأصبحت كل مدينة لا تجد من نفسها قوة التأثير التي تتمتع بها بغداد ». (1)

لقد كانت دمشق مقراً لإقامة الملك عمر النعمان وحاشيته، باعتباره ملكاً أمويّاً، وعندما يرتحل السرد بأولاد عمر النعمان صوب العالم، فإنهم لا يعودون إلى دمشق، بل إلى بغداد، بعد أن يكون الراوي نقل أباهم إليها، وكأنّ دمشق الأموية، التي بدأ نجمها يأفل، أو التي يتمنى الراوي أن يسرع في الأفول، لا تليق بملك عظيم الشأن استطاع أن يقهر « الأكاسرة والقيصرة » (2)، بل لا تليق به إلاّ بغداد العباسية العريقة. أو لا يليق بزمان انتصاره على الملوك إلاّ الزمن العباسي (3).

يقول الراوي (4): « ثمّ إنه أرسل [شركان بن عمر النعمان] جماعة من أصحابه إلى بغداد ليعلم والده عمر النعمان بقدمه. »، مع العلم أنّ حركة الوحدات السردية لم تنقل سابقاً عمر النعمان من دمشق إلى بغداد، ولا يشير

(1) القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1966م، ص 263.

(2) ألف ليلة وليلة، 1 / 292.

(3) الزمن الذي انتشر فيه العرب في الشرق والغرب فاتحين، الزمن الذي تحولت فيه لغة العرب إلى لغة عالمية في الدين والسياسة والعلم والحضارة، والذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى قمة أمجادها في السلم والحرب والفكر والفن، وقدمت للعالم رؤياها الخاصة في كل جوانب الحياة، وتوطدت سلطتها ما بين قلب أسيا في التنيبت حتى أمواج المحيط الأطلسي، وورثت مهام الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية معا.

- نبيل، مصطفى: "بغداد العباسية - رحلة في المكان والزمان"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت العدد 241، ديسمبر/كانون الأول، 1978، ص 79 .

(4) ألف ليلة وليلة، 1 / 270.

بونة للبحوث والدراسات العدد : السادس ذو القعدة 1427 هـ/ ديسمبر 2006 م

نمو الأحداث وحبكتها إلى ضرورة هذا الانتقال لا من قريب ولا من بعيد. وبدلاً من أن يعود الوزير دندان إلى دمشق، حيث مقرّ الملك ضوء المكان بن الملك عمر النعمان، فإنّ الرّاوي ينقله إلى بغداد: « ثم سار حتى أشرف على بغداد. »⁽¹⁾ وبعد أن كان هذا الرّاوي قد جعل عمر النعمان صاحب دمشق، فإنّه أسرع وجعله صاحب بغداد وخراسان⁽²⁾. ويبدو أنّ « ممّا يزيد تشويق الحكاية ويضاعف مصداقيتها أن تقع أحداثها في مدينة كبيرة كبغداد، حتى وإن كان الرّاوي من خارج بغداد وعليه أن يأتي إليها. إنّ وقوع الأحداث في بغداد يجعلها أقرب إلى (...) وجدان المتلقي سواء كان ذلك الخليفة أو المتلقي العام الذي لبغداد حضور خاص في مخياله. »⁽³⁾.

إنّ بغداد في ألف ليلة وليلة جنة جميلة من جنان الدنيا، ببساتينها، وحدائقها الجميلة: « قال الرئيس هذه بغداد (...) وقد ولّى عنها الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهرت أشجارها وجرت أنهارها. »⁽⁴⁾. وبغداد لا تضاهيها مدينة في سائر البلدان، ففيها لذة العيش ورفاهيته، وفيها الناس الطيّبون. يقول حسن البصري لمحبوته منار السنا: « وأسافر إلى بلدي وأكون أنا وأنت في مدينة بغداد، واشتري لك الجواري والعبيد ولي والدة من أطيب الناس تكون في خدمتك وليس هناك بلاد أحسن من بلادنا. وكل ما فيها أحسن ممّا في غيرها من سائر البلاد، وأهلها ناس طيبون »⁽⁵⁾. ومن يأت إلى بغداد فإنّه سيجد مسكناً طيّباً، ولن يفكر بالرجوع إلى بلاده، فاليمانيّ في حكايته مع جواريه الست، يرتحل من اليمن إلى

(1) م ن، 2 / 81.

(2) م ن، 1 / 293.

(3) باقادر، د. أبو بكر: "العالم نصّ، النصّ عالم: حكاية جراب الكردي نموذجاً"، علامات في النقد "كتاب دوري"، نادي جدّة الأدبي، جدّة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر 1418 هـ/ يونيه 1997 م، ص 89.

(4) ألف ليلة وليلة، 1 / 199.

(5) م ن، 4 / 282.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس
بغداد، ويستقرّ فيها، حيث يطيب له مسكنها⁽¹⁾. فهواء بغداد في الليالي معتدل،
ونسيمها رائق ورائحته ذكيّة، وبساتينها عظيمة مليئة بالطيور الجميلة « من
قماري وهزار وشحارير وبلبل وفاخت وكروان »⁽²⁾ وهي مدينة النعم
والخيرات، ورجالها من أهل النعم والأموال الكثيرة⁽³⁾.

إنّ فضاء بغداد في الليالي فضاء أليف محبب للنفس، وقادر على
إزالة الهموم وتبديد الأرق والقلق، فلقد كان الخليفة هرون الرشيد يبذل وحشته
وقلقه، بالخروج من فضاء قصره، إلى شوارع بغداد الأليفة، و« حكي أنّ
الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة من الليالي.. وقال: إنّ صدري ضيق ومرادي
في هذه الليلة أن أتفرّج في شوارع بغداد وأنظر في مصالح العباد»⁽⁴⁾.

لقد كانت بغداد في الليالي مدينة جميلة أسرة، تشرح الصدر، وكان
الغريب القادم إليها يجد ملاذاً لغربته، وسكناً لروحته. يقول علي الزبيق
المصري لنفسه عندما يفترسه وحش الغربة، ويضيق صدره: « قم شقّ بغداد
ينشرح صدرك »⁽⁵⁾. وسينشرح في ما بعد صدر علي الزبيق المصري، لأنّ
لأنّ بغداد ستعطيه كل شيء: المال والجاه والاقتراب من الخليفة هرون
الرشيد، وأربع نساء من أجمل نساء بغداد: زينب النصابية بنت دليلة المحتالة،
وقمر بنت عزرا اليهودي، وبنت السقطي وجاريتها الجميلة⁽⁶⁾. وستهبه قصراً
قصراً جميلاً، وقاعة بأربعة لواوين⁽⁷⁾، وأربعين مخدعاً لصبيانته الشطار،
كلّفت الدولة عشرة آلاف دينار⁽⁸⁾.

(1) م ن، 3 / 71.

(2) م ن، 3 / 396.

(3) م ن، 4 / 435.

(4) ألف ليلة وليلة، 2 / 425.

(5) م ن، 4 / 174.

(6) م ن، 4 / 177.

(7) اللّوان : الإيوان، وهو المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان (فارسيه).
المنجد في اللغة، مادة: لين. ص 743.

(8) ألف ليلة وليلة، 4 / 177.

إنّ صورة بغداد في ألف ليلة وليلة هي الصورة التاريخية التي تحدّثت عنها الأدبيّات التاريخية الكلاسيكيّة، وعندما نقرأ بغداد في الليالي، فإنّنا نقرأها في هذه الأدبيّات بملامحها وعلاقاتها وأخبارها نفسها. وإن كانت الليالي قد أعطتها عظمة سحرية تخيليّة فاقت حدّ الواقع، فإنّ هذه العظمة تستقي كثيراً من ملامحها، من الواقع الحقيقي لمدينة بغداد، فهواء بغداد في المصادر التاريخية أفضل من كل هواء وماؤها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرقّ من كل نسيم لأنّها في الإقليم الاعتداليّ بمنزلة المركز من الدائرة⁽¹⁾.

إنّ أهمية بغداد واتّساعها وانفتاحها على حضارات العالم، في تاريخ الخلافة العباسيّة، وتوظيفها في حكايات ألف ليلة وليلة بهذا البعد المعرفي المستفيد من هذه الحضارات، يجعل من الحكايات حقلاً مرجعياً ومعرفياً لمعالم هذه الحضارات. ولأنّ فضاء بغداد أهمّ فضاء مكاني بالنسبة لكثير من الرّواة، فإنّهم يأتون إلى هذا الفضاء ليشكّلوا الحكايات، ومعالم حضارات المدن الأخرى فيها، وليسردوها في قصور هذا الفضاء ومنازله. وكثيرة هي الحكايات التي يرتحل فيها السرد إلى مدينة بغداد، فأبو الحسن الخليليّ، يسرد ما شاهده من عشق نساء زمانه لرجال هذا الزّمان، أمام هرون الرشيد⁽²⁾. وعلي بن بكّار يرتحل من خراسان إلى بغداد ليقوم علاقة غرامية مع جارية هرون الرشيد شمس النهار⁽³⁾. والأمراء الصعاليك الثلاثة

(1) معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1399هـ/1979م، 1 / 461. هذا وقد مدح بعض الشعراء طبيعة بغداد الجميلة، وصفاء الحياة فيها فعلى سبيل المثال يقول الشاعر طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن مادحاً بغداد:

هي البلدة الحسنة، خُصّت لأهلها	بأشياء لم يُجمعن مذ كنّ في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة،	وماء له طعم ألذّ من الخمر
ودجلتها شيطان قد نُظِمنا لنا	بتاج إلى تاج، وقصر إلى قصر
تراها كمسك، والمياه كفضّة،	وحصباؤها مثل البواقيت والدرّ.

- عن / معجم البلدان، 1 / 463.

(2) ألف ليلة وليلة، 2 / 163.

(3) م ن، 2 / 183.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس يرتحلون إلى بغداد، ليسردوا قصص تشردهم أمام الخليفة الرشيد، وفي دار البنات الثلاث ببغداد⁽¹⁾.

وتمثل حكايات السندباد البحري أهمّ الارتحالات السردية، من المدن البعيدة إلى بغداد. ومن الملاحظ أنّ معظم الحكايات البغدادية، أو الحكايات المرتحلة إلى بغداد لا تسرد أحداثها الواقعية أو الأسطورية الشائعة، إلا بحضور السلطة السياسية، التي يمثلها الخليفة هرون الرشيد وولده المأمون. وعموماً يتزامن سرد الحكايات أمام الرشيد مع وجود الوزير جعفر البرمكي، ومسروق السياف، وأحياناً النديم أبي نواس، ومن هذه الحكايات: حكاية « محمد علي بن علي الجوهري مع الخليفة هرون الرشيد. »⁽²⁾، وحكاية « هرون الرشيد مع الصياد »⁽³⁾، وحكاية «علاء الدين أبي الشامات »⁽⁴⁾، وحكاية « بدور بنت محمد علي بن علي الجوهري مع جبير بن عمير الشيباني »⁽⁵⁾.

إنّ بغداد كما تصوّرّها الليالي مدينة مفتوحة أمام كل الناس، أكانوا عرباً أم عجماً أم من جنسيات أخرى. يسافر الناس منها وإليها، يأتيها بهرام المجوسي كما في حكاية « حسن الصائغ البصري »، ويأتيها علي بن بكّار، وعلاء الدين أبو الشامات، ويسافر منها السندباد، وتأتيها الجوّاري من اليمن، ومن أصقاع الأرض، وهي قبلة الناس من المدن الأخرى⁽⁶⁾. ففي بغداد العباسية امتزجت الأجناس البشرية التي أتت إليها من الأمم المختلفة، وذلك

(1) م ن، 1 / 55، 60، 72.

(2) م ن، 4 / 425.

(3) م ن، 1 / 88.

(4) م ن، 1 / 88.

(5) (133) م ن، 3 / 58.

(6) مع ملاحظة أنّ بعض أبطال الليالي يستبدلون مدنهم الأصلية بمدينة بغداد المركزية، ويستقرون ويموتون فيها، فعلاء الدين أبو الشامات — وعلى الرغم من ثرائه في مصر، باعتبار والده شاه بندر التجار — يترك مصر، ويرتحل إلى بغداد ويموت فيها، وحسن الصائغ البصري يترك البصرة ليعيش في بغداد ويموت فيها، وعلي الزبيق المصري يغادر مصر ويرتحل إلى بغداد ليظلّ فيها إلى آخر حياته.

« على أثر الفتوح الأموية، فكان منها العنصر البربري الوارد من بلاد المغرب، والعنصر الفارسي الوارد من بلاد فارس، والعنصر العربي الوافد من جزيرة العرب، واليمنيون الآتون من اليمن، والنبطيون والروم الذين كانت تسوقهم الحرب بين المسلمين والبيزنطيين وغيرهم من العناصر والأجناس الأخرى »⁽¹⁾.

وبغداد من أهم المراكز التجارية المنتشرة في مدن ألف ليلة وليلة المترامية الأطراف، فهي قبلة للتجار من المدن الأخرى، نظراً لازدهار الحركة التجارية، وسهولة التعامل في البيع والشراء، فالناس في بغداد يعيشون وضعاً اقتصادياً متميزاً ومزدهراً. وتجار بغداد يتضامنون مع أبناء تجار المدن الإسلامية المنكوبين، الذين يأتون بغداد، ويتقنون بهم، ففي حكاية « علي المصري وزواجه بنت ملك بغداد »، ينتقل علي المصري من مصر، بعد أن صرف كل أموال والده، وعندما يصل إلى بغداد يدّعي أمام تجارها، أن لصوصاً هجموا عليه، عندما سبق قافلته. يقول علي المصري⁽²⁾: « أنا رجل من مدينة مصر ومعى تجارة وبغال وأحمال وعبيد وغللمان فسبقتهم لكي أنظر لي محلاً أحطّ فيه تجارتي، فلما سبقتهم وأنا راكب على بغلتي قابلني جماعة من قطاع الطرق ». وعندما يستمع بوابو بغداد إلى قصته، يسارعون إلى إكرامه قائلين: « مرحباً بك فبت عندنا إلى الصباح، ثم ننظر لك محلاً يليق بك ».

ومن بغداد تذهب القوافل التجارية ميمّة صوب مدن بعيدة من العالم لتشتري وتبيع، ويسمّيها الراوي بمدن اليهود⁽³⁾. وفي بغداد تربو أموال

(1) أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الثالث، ذي القعدة 1370هـ / 1951م، ص 72.

(2) ألف ليلة وليلة، 3 / 213.

(3) م ن، 3 / 355.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس

التجارة، وتتضاعف أرباحها، ولذا فهي محط أنظار التجار. يقول أحد أولاد التجار، في حكاية « علاء الدين أبي الشامات »: « ثم أخذت متجراً من الشام وسافرت إلى بغداد وبعته فربحت المثل مثلين، ولم أزل أتجر حتى صار رأس مالي نحو عشرة آلاف دينار»⁽¹⁾. وهاهو علاء الدين أبو الشامات بالرغم من ثراء والده الفاحش، يطلب من والدته أن تتوسط له عند أبيه ليسمح له بالسفر إلى بغداد، حيث الأرباح، والثراء: «فقلت له: إلى أيّ البلاد تسافر؟ فقال لها: إلى مدينة بغداد، فإنّ الإنسان يكسب فيها المثل مثلين. »⁽²⁾. ومن لا يذهب تاجراً إلى بغداد، فإنّه لا يصبح رجلاً، ولا خبيراً في كسب الدراهم، وليس فخر التجار إلا بالسفر لأجل أن يكسبوا الدراهم⁽³⁾. ويقرّر ذلك علاء الدين أبو الشامات، ويصمم على السفر إلى بغداد: «لا بدّ لي من السفر إلى بغداد. بمتجر وإلا خلعت ثيابي ولبست ثياب الدراويش وطلعت سائحاً في البلاد »⁽⁴⁾.

لقد كانت بغداد مركزاً حضارياً فاعلاً في تنشيط حركة التجارة وازدهارها في الدولة العباسية، إذا أصبحت في هذه الدولة: « المركز الرئيس للصناعة والتجارة المحلية والدولية. وأنشئت [في هذه الدولة] شبكة من الطرقات في البرّ والبحر ربطت المدن المهمة في بلاد الخلافة بالعالم الخارجي، ففي الشرق وصل التجار المسلمون إلى الصين، وفي الشمال اخترقوا بقوافلهم بلاد الروسية، وفي الغرب لم يتوقفوا إلا على شواطئ المحيط الأطلسي. وأعظم ما جذب العرب إلى الصين كان الحرير، و« وطريق الحرير العظيمة» قادتهم خلال بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون)

(1) م ن، 2 / 354.

(2) م ن، 2 / 355.

(3) (140) - م ن، 2 / 354.

(4) ألف ليلة وليلة، 2 / 355.

بونة للبحوث والدراسات العدد : السادس ذو القعدة 1427 هـ/ ديسمبر 2006 م
وخلال التركستان» (1).

ولقد وعى سكان مدن ألف ليلة وليلة أهمية بغداد التجارية، ودورة رأس المال السريعة فيها، فقرروا أن يرتحلوا ببضائعهم إليها. ففي حكاية «التاجر غانم بن أيوب وقوت القلوب»، وعندما يموت أيوب والد غانم، يترك له أموالاً كثيرة، فيقرر غانم الارتحال بها إلى بغداد لتأمينها، إذ يأخذ «مائة حمل من القزّ والديباج ولوافح المسك (...)» وسافر بها إلى بغداد — وكان ذلك في زمن هرون الرشيد — «(2). وهناك في بغداد يتلقاه أبناء كاره بالإكرام والترحيب إذ تتضاعف أمواله. يقول الراوي (3): «ونزل بها [غانم بن أيوب] إلى سوق التجار فلاقوه وسلّموا عليه وأكرموا وتلقوه بالترحيب وأنزلوه على دكان شيخ السوق وباع التفاصيل فربح في كل دينار دينارين». إنّ بغداد في الليالي حلم الطامعين بالثروة، ولذة العيش (4)، ولذا فإنّ القوافل التجارية تسافر من مصر إليها (5). وها هو علي الزبيق المصري يسافر مع هذه القوافل، بعد أن سمع عن ثراء الشطّار — رفاق مهنته —، وبعد أن أخبره سيّده «أحمد الدنف»، أنّ بغداد يمكن أن تعطي الطامحين إلى السلطة والثروة كلّ ما يريدونه، فلقد أعطت أحمد الدنف، أحد الشطّار المصريين القادمين إلى بغداد وظيفة مقدّم بغداد في ديوان الخليفة هرون الرشيد، بعد أن أظهر براعته في النصب والاحتفال. يقول أحمد الدنف (6):

(1) حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار/مارس، 1983 م، ص 185.

(2) ألف ليلة وليلة، 1 / 217.

(3) م، 1 / 217.

(4) وبغداد في التاريخ هي "الممدوحة في الوري، التي يحلم بها كل حانق وكل قلب". ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر — الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تنمة القسم الثاني والقسم الثالث، ترجمة إبراهيم الخوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995م، ص 387.

(5) ألف ليلة وليلة، 4 / 143.

(6) ألف ليلة وليلة، 4 / 134.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحيم يونس

« وبعد فالسلام من المقدّم أحمد الدنف إلى أكبر أولاده علي الزبيق المصري والذي نعلمك به أنّي (...) أصبحت مقدّم مدينة بغداد في ديوان الخليفة ومكتوب على درك البرّ، فإن كنت ترعى الذي بيني وبينك فأنت عندي لعلك تلعب منصفاً في بغداد يقرّبك من خدمة الخليفة » .

ولقد عرفت هذه المدينة بطراً وثراءً، لم تعرفه أيّة مدينة أخرى في العهد العباسي، ولا الأموي، إذ عايش الناس رفاهية ولذة في حياتهم، بفضل الأموال الكثيرة المتدفقة على الدولة من الضرائب الكثيرة، إذ « كان الملوك المستقلّون يرسلون الأموال الوافرة إلى الخليفة في بغداد اتقاءً لسلطوته، وابتغاءً لمرضاته. فكان الطولونيون، مثلاً، يدفعون في القرن التاسع [الميلادي] 300.000 دينار في السنة لخليفة بغداد الذي كانت ميزانيته تتكون حتى أواخر القرن التاسع من دنائير الغرب ودرهم الشرق »⁽¹⁾.

وأمام زيادة الثروة فيها، يبدو من الطبيعي أن يقصدها طالبو الأموال، والباحثون عن حلّ لمشاكل عوزهم وفقيرهم. فهذا هو أحد البدو في حكاية « عمر النعمان وولديه »، يعجز عن الزواج بابنة عمّه، بعد أن اشترط عمّه « عليه من الصداق ما لا يُطاق »⁽²⁾، فيقرّر أمام عجزه عن دفع مهرها أن يذهب إلى بغداد الثرية، ليجلب المال، ويتزوجها. يقول البدوي للأمير (كان ما كان)، عندما يسأله هذا الأخير عن وجهة سيره: « أقصد بغداد بلدك وأقيم بها حتى يرزقني الله بالصداق »⁽³⁾.

(1) الخازن، د. ولیم: الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، 1992م، ص 87. وأخذ الخازن عن /

Lombard , Maurice:L'Islam dans sa première grandeur (XIe – XIIe s.), P. 116.

(2) ألف ليلة وليلة، 2 / 94.

(3) (150) - م ن، 2 / 94.

وبغداد كريمة — في أوج ازدهارها المالي — لا تضمن بخيراتها على أصحاب المهن المتدنية. ومن يقصدها منهم، لا بدّ أن يجد مأماً من ذلّ الحاجة والفقر. فهاهو أحد الجزّارين يصبح غنياً فيها، ففي حكاية « الأحذب وملك الصين »، يقول المزيّن لملك الصين، عن أخيه الجزّار: « فإنّه كان جزّاراً ببغداد يبيع اللحم ويربّي الخرفان، وكان الكبار وأصحاب الأموال يقصدونه ويشترّون منه اللحم، فاكْتَسَبَ من ذلك مالاً عظيماً»⁽¹⁾.

وتشير الليالي إلى أنّ بغداد كانت تُكرم السقّائين الغرباء الوافدين إليها، ويبدو أنّ هذه المهنة كانت منتشرة في المدينة العربية الإسلامية في العهدين الأمويّ والعباسيّ، إذ اكتظّت المدينة الإسلامية بأناس محترفين يكتسبون من وراء إسقاء المارة بالأسواق، وهؤلاء كانوا يسقون الناس بالكيزان والرّوايا والقرب والدلاء⁽²⁾. ونقرأ في حكاية « علي الزبيق المصري مع دليّة المحتالة »، أنّ سقاءً مصرياً قدم إلى بغداد، وهناك وجد عطفاً واحتراماً كبيرين، من شيخ السقّائين ببغداد. يقول السقاء: « ثم سألت عن شيخ السقّائين ببغداد فدلّوني عليه، فدخلت وقرأت الفاتحة (...) فأخلى لي دكاناً وأعطاني قربة وعدة »⁽³⁾. وعندما يتعرّف هذا السقاء إلى مقدّم بغداد أحمد الدنف، يكرمه هو وأصحابه، ويغدقون عليه، حتى يصبح دخله ألف دينار: « وقال [أحمد الدنف] يا سقاء من أين أنت؟ فقلت له من مصر، فقال حيّا الله مصر وأهلها. وما سبب مجيئك إلى هذه المدينة، فحكيت له قصتي وأفهمته أنّي مديون وهربان من الدين والعيلة. فقال مرحباً بك فأعطاني

(1) م ن، 1 / 168.

(2) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: " الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية "، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، 1980 م، ص 117.

(3) ألف ليلة وليلة، 4 / 141.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس
خمسة دنانير، وقال لأتباعه اقصدا وجه الله وأحسنوا إليه فأعطاني كل واحد
ديناراً (...) فصرت أتردد عليهم وصار يأتيني الخير من الناس، ثم بعد أيام
أحصيت الذي اكتسبته منهم فوجدته ألف دينار⁽¹⁾.

ويمكننا أن نتخيل رقعة الدولة العربية الإسلامية في ألف ليلة وليلة،
فضاءً مفتوحاً، يجد المرء نفسه داخل هذا الفضاء قادراً على التنقل بسهولة،
حيث لا رقابة ولا حدود ولا جمارك، وحيث العرب والمسلمون متآلفون في
سما بينهم، وقادرون على تبديد الشعور بالمأساة لدى الغرباء القادمين إلى
مدنهم، فالعربي من مصر يجد نفسه بين أهله وأصدقائه إذا زار بغداد⁽²⁾،
والعربي الواعظ من بغداد إذا جاء إلى حماة، يجد أنه مشمول بالرعاية
والاحترام، إذ يكثر الوافدون إلى منزله من الفقهاء وذوي المعارف
والآداب⁽³⁾، كما في حكاية «سيدة المشايخ ببغداد وقدمها إلى حماة». إلا أنه
ومن الملاحظ، وفي البنية العامة لحكايات ألف ليلة وليلة، أن الأشخاص
المسافرين إلى مدن غيرهم، سواء أكانت عربية أم إسلامية، أم أجنبية، أم
تخيّلية، يرجعون إلى أوطانهم، مهما بعدت بهم المسافات والأزمنة – نستثني
من ذلك بعض المسافرين إلى بغداد – وكأنّ تراب الوطن لا يعادله أي تراب
آخر. ويجسد الرّاوي رغبة الأفراد المسافرين، بالعودة إلى بلدانهم، على
لسان أحد شخوص الحكايات، إذ يرى أنّ إقامة الغريب في بلاد الآخرين
خواء مدمر للأحلام والمنى:

كبنيان القصور على الرياح	إقامات الغريب بكل أرض
لقد عزم الغريب على الرواح ⁽⁴⁾	يهبّ الرّيح تنهدم المباني

(1) م ن، 4 / 141 - 142.

(2) كما يظهر في حكايتي: علاء الدين أبي الشامات، وعلي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد.

(3) ألف ليلة وليلة، 3 / 196.

(4) ألف ليلة وليلة، 4 / 132.

لقد كانت بغداد أكثر مدن ألف ليلة وليلة التي يرتحل السرد منها وإليها، باعتبارها « مدينة أمينة»⁽¹⁾. ولأنّها « دار السلام»⁽²⁾، فإنّ الفرد يستطيع أن يعيش فيها بأمان وسلام، ويستطيع أن يحافظ على أمواله من شرّ الطامعين فيها، في المدن الأخرى، فحسن الصائغ البصري بعد أن يصبح غنياً في البصرة، تخاف عليه أمّه، وتفتّرح عليه الذهاب إلى بغداد: « قالت يا ولدي: نحن بهذا المال لا نقدر أن نعيش في هذه المدينة، وأنت تعرف أننا أناس فقراء (...) فقم بنا نسافر إلى مدينة بغداد دار السلام»⁽³⁾. وقد سافر حسن الصائغ البصري إلى بغداد لأنّها أكثر ازدهاراً وثراءً من البصرة، ففي بغداد طبقة ثرية جداً، لن تستغرب إلى أي مدى وصل إليه ثراؤه، لأنّ ثراءه سيبدو عادياً ومألوفاً في بغداد المتخمة بالثراء الفاحش.

وإذا كان الأشخاص الفقراء والأغنياء يقصدون بغداد طلباً لمزيد من الثراء وتنمين الأموال، والمحافظة عليها، فإنّ الملوك الجبابرة وذويهم يذهبون إلى بغداد طلباً للصلح والأمان. فهاهي العجوز شواهي ذات الدواهي، أم الملك حردوب (ملك الروم)، تذهب إلى بغداد، لأنّها « تريد الدخول على الملك ساسان لتطلب منه الصلح والأمان»⁽⁴⁾.

وأهل بغداد، كما يراهم أحد رواة ألف ليلة وليلة، أهل وفاء وأمانة، ويؤدّون الأمانة إلى أهلها، وهم معروفون بهذه الأمانة في الأقاليم المجاورة، فهاهو أحد الرجال الخراسانيين (لا يذكر الراوي اسماً له)، يأتي من خراسان إلى بغداد ليضع أمواله أمانة عند أبي حسّان الزياتي. يقول الزياتي⁽⁵⁾:

(1) م ن، 1 / 199.

(2) م ن، 3 / 415 ؛ 4 / 368.

(3) م ن، 4 / 290.

(4) م ن، 2 / 95 .

(5) م ن، 3 / 125.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس

« دخل عليّ غلام فقال لي: إنّ بالباب رجلاً يطلب الدخول عليك. فقلت ائذن له، فدخل فإذا هو رجل خراساني، فسلم عليّ فرددت عليه السلام. ثم قال لي: هل أنت أبو حسان الزيادي؟ قلت: نعم وما حاجتك؟ قال: إني رجل غريب وأريد الحجّ ومعني جملة من المال وأنه قد أتقني حمله وأريد أن أدع عندك هذه العشرة الآلاف درهم إلى أن أقضي حجّي وأرجع » .

وتصل أخبار بغداد وأخبار الحياة الآمنة فيها إلى الصين، كما يذكر الراوي في حكاية «الأحذب وملك الصين»، فالرجل الأعرج يرفض الجلوس بحضور المزيّن البغدادي – ابن مدينته – في إحدى الدور، لأنّ المزيّن البغدادي كان السبب في كسر رجله. وعندما يؤكّد الراوي الخياط لملك الصين أنّ الرجل الأعرج رفض الجلوس مع المزيّن، لأنّه ما أحسن نحوه بالأمان، تساءل ملك الصين مدهوشاً: « كيف يكون هذا الشاب من بغداد ويتشوش خاطره من هذا المزيّن؟ »⁽¹⁾. وكأنّ على سكان بغداد، ألاّ يشعروا بالقلق والخوف، طالما أنجبته بغداد التي وصلت أخبارها إلى الصين، على أنّها مدينة آمنة وهادئة⁽²⁾.

إنّ بغداد في الليالي فضاءً حالم بالنسبة للشخص، فهي محطة للمتعة والمسرات⁽³⁾، والمآكل اللذيذة، والأخبار العجيبة التي تفوق الأساطير. إنّها

(1) (163) – ألف ليلة وليلة، 1 / 151.

(2) ومن الطبيعي ان يسمع ملك الصين ببغداد وأخبارها، ويعرف جزءاً من تركيبها السياسية والاجتماعية، ولا سيما أنّه كان للعرب جالية كبيرة في مدينة كانتون في الصين. وقد نُظِمَ فيها ديوان البحر، وكان يُخطب فيها للخليفة العباسي. وإمبراطور الصين يستقبل تجار المسلمين بالحفاوة والتكريم.

الخازن، د. وليم: الحضارة العباسية، ص 95 .

(3) وقد وصف أحدهم بغداد وصفاً لا يبتعد كثيراً عن خصائصها الجمالية في ألف ليلة وليلة، إذ قال: "بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الطرائف واللطائف". عن / معجم البلدان، 1 / 461 .

ميناء اللّذات بامتياز، ولا يفوقها ميناء آخر في هذا المنحى، في مدن ألف ليلة وليلة جميعها. ولأنّها هذا الميناء اللذائذي، فقد كانت حلماً لأحد البدو، الذي قصدها خصيصاً من البادية، لأجل أن يأكل الزلابية التي لم يذقها طوال حياته، في مجتمعه البدوي: « فقال البدوي لا بدّ من دخولي بغداد وأكل فيها زلابية بعسل. وكان عمره ما رآها ولا دخل بغداد »⁽¹⁾.

وبغداد قبلة الجوّاري الجميلات اللواتي يُبعنَ في أسواق رقيقها، هاته الجوّاري اللواتي لا تستطيع الشخصيات مقاومة جمالهنّ، وتكاد تقتل أنفسها، إذا ما خرجن من حقل امتلاكها. يقول أحد الشخصيات بعد أن فقد جاريته الجميلة: « كدت أن أقتل روعي فتذكّرت الآخرة والنار فخرجت من بيتي هارباً إلى بعض الأصدقاء (...) » وقال: اقبل رأيي واخرج في هذه الساعة من بغداد (...) إلى أن يشتغل قلبك عن حبّها وتسلو عنها⁽²⁾. وهاهو أحد سادة البصرة الأثرياء، ترك البصرة، ويمّم صوب بغداد، لأجل أن يسمع الغناء، ويشترى الجوّاري، ويزداد ثراءً بالاقتراب من خليفتها هرون الرشيد. يقول: « أنا رجل قد وسّع الله عليّ وإنّما وردتُ بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاق من أمير المؤمنين⁽³⁾. مع ملاحظة أنّ هذا الرّجل السيّد هو « هاشمي من أهل البصرة، وكان ذلك الرّجل أديباً ظريفاً كريم النفس فاشترها [جارية من بغداد] بألف وخمسمائة دينار⁽⁴⁾ ».

ويبدو أنّ فضاء البصرة بكلّ اتّساعه، وعلى الرّغم من أنّه أعطى الرّجل الهاشمي السيادة والمال، لم يكن كافياً لكبح جموح نزعة التوق والحنين إلى فضاء جماليّ آخر هو فضاء بغداد، بأصوات نسائه الجميلات،

(1) ألف ليلة وليلة، 4 / 131.

(2) م ن، 4 / 437.

(3) ألف ليلة وليلة، 4 / 439.

(4) م ن، 4 / 436.

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس

وأموال خليفته هرون الرشيد التي لا تُعدّ ولا تُحصى. لقد كانت بغداد العباسية قبلة المغنين والمغنيات ومحبي الموسيقى، وقد « انتشر الغناء في العصر العباسي انتشاراً كبيراً حتى أصبح يُعدّ من حاجات الناس الضرورية، فظهر المغنون والمغنيات في المحالّ العامة، وفي الشوارع، وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت الأغنياء والفقراء ولم يتحرّج بعض الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغني بها »⁽¹⁾. ولقد احتقت حكايات ألف ليلة وليلة بهاته المغنيات، احتفاءً واضحاً، وتحدّثت عن بعض آلاتهن الموسيقية، وإشاعتهنّ فضاء اللذة والمتعة في القصور والدور التي يغنين فيها⁽²⁾.

وبالإضافة إلى مركزية بغداد الاقتصادية والتجارية والترفيهية في الليالي، فإنّها ذات مركزية سياسية، وهي مركز للسلطة الدينية في آن، لأنّها عاصمة للدولة الإسلامية ومركز للخلافة، إنّها « قصر الخلافة »⁽³⁾، ومدينتها، وهي بالتالي تهيمن سياسياً وسلطوياً على المدن الأخرى، سواء أكانت قريبة منها، أم بعيدة عنها. ولأنّها « حرم الخليفة »⁽⁴⁾ العباسي، فإنّ لها منعته، وحصانته السياسية، والأوامر الصادرة من خليفته إلى المراكز والأقاليم الأخرى، لها قوتها التنفيذية، بحيث لا يستطيع أي والٍ، مهما كان عظيم الشأن، أن يرفض أوامر الخليفة. ولقد قامت حضارة بغداد العباسية

(1) (170) - سرور د. محمد جمال الدين: "الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي"، مجلة العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت العدد 57 ، أغسطس / آب، 1963 م، ص 32.

(2) تحتفي بعض حكايات الليالي بحكاية هرون الرشيد ومحمد بن علي الجواهري، وحكاية علاء الدين أبي الشامات، وحكاية حمّال بغداد والبنات، وغيرها، احتفاءً كبيراً بالنساء المغنيات والعاشقات.

(3) ألف ليلة وليلة، 4 / 330.

(4) م ن، 4 / 290.

بونة للبحوث والدراسات العدد : السادس ذو القعدة 1427 هـ / ديسمبر 2006 م
على احتضان الأمصار المجاورة لها⁽¹⁾، والهيمنة عليها، والتفاعل مع هذه
الأمصار ثقافياً وحضارياً، وعلاقات إنسانية واقتصادية. فقرارات الخليفة
هرون الرشيد في الليالي صارمة، ولا يستطيع الولاة إلا أن يخروا لها
ساجدين، فها هو المتولي على البصرة محمد الزبيدي، عندما يتلقى خطاباً من
هرون الرشيد، يسرع إلى إكرام حامله: « ودخل [الرّسول] على الأمير
محمد الزبيدي، ففرح به و أكرمه غاية الإكرام، ثم قرأ عليه بطاقة أمير
المؤمنين هارون الرشيد فقال سمعاً وطاعة »⁽²⁾. وهاهو الخليفة الرشيد
يوجه خطاباً إلى واليه بالبصرة، السلطان محمد بن سليمان الزيني، فما كان
من الوالي السلطان إلا أن قبل الخطاب هيباً من الرشيد وتعظيماً لرسوله: «
ثم أخرج [علي نور الدين] الورقة وأعطاه إيّاه، فلما رأى [السلطان محمد بن
سليمان الزيني] عنوان الكتاب بخط أمير المؤمنين قام واقفاً على قدميه وقبلها
ثلاث مرات، وقال السمع والطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين »⁽³⁾.

لقد كانت سلطة بغداد العباسية — تاريخياً — مستمدة من الله، باعتبار
أن حكامها هم خلفاء الله وأئمة في أرضه، وقد سنّ داود بن علي⁽⁴⁾ سياسة
هذه السلطة، منذ أن بويح لأبي العباس عبد الله بن محمد السفاح سنة 132
هـ/750 م، إذ صعد داود منبر الكوفة، وقال: « يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم

(1) جعيط، د. هشام: الكوفة — نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم
العلمي، الكويت، الطبعة الأولى 1986 م، ص 447.
(2) ألف ليلة وليلة، 3 / 8.

(3) م ن، 1 / 212.

(4) داود بن علي: (داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، 81-133
هـ/700-750 م): أمير من بني هاشم، وهو عمّ السفاح العباسي. كان خطيباً فصيحاً،
من كبار القائمين بالثورة على بني أمية. ولما ظهر العباسيون ولاء السفاح إمارة الكوفة، ثم
عزله عنها وولاه إمارة المدينة ومكة واليمن واليمامة والطائف، فانصرف إلى الحجاز،
وأقام في المدينة، فعاجلته منيته.

الزركلي، خير الدين: الإعلام، 333/2

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس

إمام بعد رسول الله صلى عليه وسلم إلا علي بن أبي طالب، وهذا القائم فيكم — يعني أبا العباس السفاح — .»⁽¹⁾.

وها هو الخليفة أبو جعفر المنصور، الذي استلم مقاليد السلطة سنة 136 هـ/754 م، يرسخ قدسية السلطة العباسية، مؤكداً أنه ظلّ الله على أرضه، وسلطانه على عبادته. يقول في خطبة له: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيقه وتسديده وتأيينه، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه فارغبوا إلى الله وسلوه أن يوفّقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم»⁽²⁾.

ومن داخل البنية المعرفية لرواة ألف ليلة وليلة، التي تعي سطوة هذه السلطة في التاريخ، نجد أنّ راوي إحدى حكايات الليالي، يجعل من هذه السلطة ظاهرة شمولية، لا لتكون سلطة شمولية على الأرض بسكانها، بل لتكون سلطة على عالم الجن والعفاريت أيضاً. فهي هو الخليفة هرون الرشيد في حكاية «الحمال والبنات»، يجلب الجنّة التي سحرت الأختين الكبيرتين من خلف جبل قاف، وحينما تشاهده هذه الجنّة تدين له بالطاعة، باعتباره خليفة الله: «وإذا بالجنّة قد حضرت وكأنت مسلمة، فقالت: السلام عليك يا خليفة الله، فقال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»⁽³⁾. وعند ذلك أمرها الخليفة الرشيد بتخليص الأختين الكبيرتين من حال المسوخية «الحالة الكلبية» إلى حال «الصورة البشرية»⁽⁴⁾.

(1) المسعودي، علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ/1991 م الجزء الثالث، ص 262.

(2) عن / نبيل، مصطفى: "بغداد العباسية - رحلة في المكان والزمان"، ص 90.

(3) ألف ليلة وليلة، 1 / 87.

(4) م ن، 1 / 88.

إنّ من يخرق بعض محرّمات سلطة بغداد المركزيّة — حتى ولو كان هذا الخرق ناتجاً عن عدم معرفة بهوية هذه السلطة — أو من يقترب من حظاياها اللواتي تقذفهنّ المقادير إليه بالمصادفة، لا بدّ من أن ينال عقاباً قاسياً، يُشهر به بين أفراد مدينته. فالتاجر غانم بن أيوب يعشق قوت القلوب، حظيّة الخليفة هرون الرشيد، من دون أن يعلم أنّ المائلة أمامه، تعود ملكيتها إلى قصر الخلافة، عندها يستنفر هرون الرشيد أحقاده على غانم بن أيوب، من دون أن يعرف الأسباب الجوهرية التي جعلت الحظيّة قوت القلوب تعشق هذا الرّجل الكريم الذي أنقذها من الموت. يقول الرّاوي⁽¹⁾: « فقال له الخليفة بغيط: أنزل يا جعفر [البرمكي] واسأل عن بيت غانم بن أيوب واهجموا على داره وائتوني بجاريتي قوت القلوب، ولا بدّ أن أعذّبه. » وبناء على أوامر الخليفة يهجم الوزير والوالي والظّلمة⁽²⁾ — كما تسميهم شهرزاد — ويحيطون بدار غانم بن أيوب، وينهبون كلّ ما فيها، ويحملون قوت القلوب، وكلّ ما تحتويه دار غانم بن أيوب من مجوهرات وأموال⁽³⁾. ومن غضب عليه أحد خلفاء بغداد العباسيّة في الليلي، فإنّ مصيره النفي والاعتراب الأبدي، إلى أن يأتي هازم الذات، ويأخذ هذا الخليفة. فالخليفة المنتصر بالله⁽⁴⁾ في حكاية « مزين بغداد » الدّاخلية في حكاية

(1) م ن، 1 / 234.

(2) م ن، 1 / 234.

(3) م ن، 1 / 235.

(4) المنتصر بالله : محمد بن جعفر (المتوكّل على الله) بن المعتصم، 223-248 هـ / 838-862 م): من خلفاء الدولة العباسيّة وُلد في سامراء، وبويع بالخلافة بعد أن قتل أباه (سنة 247 هـ) وفي أيامه قويت سلطة الغلمان فحرّضوه على خلع أخويه المعتزّ والمؤيّد (وكانا وليي عهده) فخلعهما. قيل : مات مسموماً بمبضع طبيب. ووفاته بسامراء. ومدة خلافته سنة أشهر وأيام.
الزركلي، خير الدين: الأعلام، 6 / 70 .

بغداد-المدينة-الدولة المركز في حكايات ألف ليلة وليلة د.محمد عبد الرحم يونس

«الأحذب وملك الصين»، يستمع إلى المزين، وهو يحكي له قصص أخوته الستة، وعندما لا تعجبه هذه الحكايات يقرر أن ينفي المزين نفيًا أبدياً خارج بغداد. يقول المزين⁽¹⁾: «فلما سمع أمير المؤمنين قصتي (...) قال: اخرج من هذه المدينة، واسكن غيرها، ثم نفاني من بغداد، فلم أزل سائراً في البلاد حتى طفت الأقاليم إلى أن سمعت بموته وخلافة غيره، فرجعت إلى المدينة» ويبدو مستحيلاً أن يفكر هذا المزين بالعودة إلى بغداد ثانية، ولا سيما إذا عرفنا أن هذا الخليفة، كما تصوّره المصادر التاريخية، كان ذا سطوة مطلقة، و«فاتكاً سفاكاً للدم». ومن شدة بطشه فقد قتل أباه جعفر المتوكل⁽²⁾. ومن ترضى عنه بغداد السياسية والمركز في الليالي، فإنها تعطيه كل شيء، وتتوجه أميراً مكللاً بالإمارة والقصور والبساتين، وتتقم له من أعدائه شرّ انتقام. فالخليفة هرون الرشيد في حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، يُعجب بكرم علي نور الدين وشهامته، فيشرح له هذا الأخير ظلم وزير البصرة — المعين بن ساوي — وسلطانها محمد بن سليمان الزيني، ومطاردتهما له، عندها يقرر الرشيد أن يقتل الوزير المعين بن ساوي، انتقاماً لعلّي نور الدين بن خاقان، ويسلمه ولاية البصرة. لكنّ علي نور الدين لا يستطيع أن يفارق بغداد الجميلة، فيرفض حكم البصرة، على أن يبقيه الخليفة بجواره ببغداد: «فعند ذلك قال الخليفة لعلّي بن خاقان تمنّ عليّ، فقال له يا سيدي أنا مالي حاجة بملك البصرة وما أريد إلاّ مشاهدة وجه حضرتك، فقال الخليفة حباً وكرامة»⁽³⁾. وبطبيعة الحال ستكافئ سلطة بغداد علي نور الدين بن خاقان، بكلّ ما يحلم به، طالما هو لا يريد إلاّ الولاء المطلق لرأس هذه

(1) ألف ليلة وليلة، 1 / 180.

(2) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دون محقق، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص 239.

(3) ألف ليلة وليلة، 1 / 216.

السلطة، ستعطيها المرأة الجميلة التي يحبها، والأموال والقصور: « ثم إنَّ الخليفة دعا الجارية فحضرت بين يديه فأنعم عليهما وأعطاهما قصراً من قصور بغداد ورتّب لهما مرتّبات، وجعله من ندمائه. وما زال مقيماً عنده إلى أن أدركه الممات. »⁽¹⁾.

هذه هي بعض ملامح مدينة بغداد كما ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، وهذه الملامح لا تختلف كثيراً عن ملامحها التاريخية والحضارية المزدهرة، كما ذكرتها المصادر والمراجع. فقد أُثبِتَت هذه المدينة لتجسّد « الطموح إلى الجديد، ورمزية الجدة، ومعنى الإمبراطورية وعزتها »⁽²⁾. إنّ موقعها الجغرافي المتميّز، كما يشير أحمد بن إسحق بن واضح اليعقوبي⁽³⁾ (ت 292 هـ/ 905 م) باعتبارها « مفترق طرق بين بحار الشرق وبحار الغرب، وبين بلدان العرب والعجم وبين دجلة والفرات »، جعلها في نصوص ألف ليلة وليلة، أهمّ فضاء مكاني في ارتحال السرد، وحركة الأبطال، وتشكيل الأحداث. وقد حاولت أن أركّز على أهمّ ملامحها كما وردت في نصوص الليالي.

انتهى البحث

(1) م ن، 1 / 216.

(2) جعيط، د. هشام: الكوفة — نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى 1986م، ص 438.

(3) عن / ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية، الجزء الرابع، تنمة القسم الثاني والقسم الثالث، ص 383.

المصادر والمراجع

المصادر القديمة :

- (1)- ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دون محقق، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
- (2)- المسعودي، علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ / 1991 م الجزء الثالث.
- (3)- مؤلف مجهول، ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، أربعة مجلدات، طبعة دون تاريخ.

المعاجم والموسوعات :

- (1)- الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط / فبراير 1997، الجزء الثاني والسادس.
- (2)- العلايلي، عبد الله، وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة، 5 نيسان، 1980 م.
- (3) - معلوف، لويس، المنجد في اللغة، دار المشرق، بيروت، دون تاريخ.
- (4) - ياقوت، الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة 1979 م / 1399 هـ، المجلد الأول..

المراجع :

- (1)- أمين، د. أحمد: هرون الرشيد، دار الهلال، القاهرة، سلسلة كتاب الهلال، العدد الثالث، 1370 هـ / 1951 م.
- (2)- جعيط، د. هشام: الكوفة - نشأة المدينة العربية الإسلامية، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى 1986 م.
- (3)- الخازن، د. ولیم: الحضارة العباسية، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، 1992م
- (4) - القلماوي، د. سهير: ألف ليلة وليلة، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1966م.

المجلات :

- (1) - باقادر، د. أبو بكر: "العالم نصّ، النصّ عالم: حكاية جراب الكردي نموذجاً"، علامات في النقد "كتاب دوري"، نادي جدّة الأدبي، جدّة، المجلد السادس، الجزء الرابع والعشرون، صفر 1418 هـ / يونيه 1997 م.
- (2) - سرور د. محمد جمال الدين: "الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي"، مجلة العربي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت العدد 57 ، أغسطس / آب، 1963 م.
- (3) - عاشور، د. سعيد عبد الفتاح: " الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية"، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، 1980 م.
- (4) - نبيل، مصطفى: "بغداد العباسية — رحلة في المكان والزمان"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت العدد 241، ديسمبر / كانون الأول، 1978.

المراجع المترجمة :

- (1) - حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار / مارس، 1983 م.
- (2) - ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام حتى منتصف القرن الحادي عشر - الأعمال والأيام، الجزء الرابع، تتمة القسم الثاني والقسم الثالث، ترجمة إبراهيم الخوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995م.

المراجع الأجنبية :

Lombard, Maurice : L 'eslam dans sa première grandeur (x1e – x111e s.)' Flammarion, paris 1971.